17 كاترين مانسفيلد

اجعل قاعدتك فى الحياة دائماً ألاَّ تأسف على شيء أبداً ولا تنظر إلى الوراء فالأسف تبديد مُروع للطاقة لا يصلح للبناء فوقه .. بل الغوص فيه .

الكاتبة البريطانية، أستاذة فن القصة القصيرة، التى مثلت كتاباتها النقلة النوعية الكُبرى بين أسلوب موباسان و تشيخوف والقص الحديث.

كانت مُعاناتها مع الفقر والمرض مصدرًا لنبوغها الأدبى وثراء إنتاجها، وقد تميَّز إنتاجها الإبداعى بالشاعرية ودقة الملاحظة ورقتها، والتركيز على الصراعات النفسيَّة الباطنية .

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت «كاترين مانسفيلد بيتشامب» فى عام 1888م، فى مدينة «ويلجتون» بنيوزيلندة، من عائلة بروتستانتية . تغيَّر اسمها عدة مرَّات حسب رحلاتها، فقد شعرت وهى فى مُقتبل العُمّر أنَّها كى تصبح كاتبة لابد من الهروب والابتعاد عن بيئتها؛ فرحلت إلى إنجلترا حيث أطلقت على نفسها أسماء مستعارة عديدة مثل كاس، وكاتى، مانسفيلد، وكاتيوشا .. إلخ .. ولكنَّها اشتهرت باسمها الأخير «كاترين مانسفيلد» كأديبة وكاتبة .

فى عُمْر الرابعة عشر ذهبت إلى إنجلترا بصحبة شقيقها حيث تابعت دراستها فى الكولج كوين Collge Queen قبل أن تعود إلى مسقط رأسها عام 1906م .

لم تشعر «كاترين مانسفيلد» بالوئام مع عائلتها ففضلت البقاء فى لندن بشكلٍ دائم وذلك فى عام 1909م وكان عُمْرها آنذاك 21 عاماً .

كانت فقيرة ونابغة أيضًا فدفعها هذا إلى التحرُّر من سيادة الغير، فاحترفت شتى المهن : التمثيل والغناء والتدريس .

زواجان لـ «كاترين مانسفيلد» :

فى عام 1909م تزوجت من «جورج بودن» ولكن هذا الزواج انتهى بالفشل، وفى عام 1918م تزوجت من الناقد وكاتب المقال «جون مدلتون موراى» الذى كان يعمل كرئيس تحرير مجلة The Athenaeum، وهو الذى قدَّم أعمال زوجته «كاترين مانسفيلد»، كما ساندها فى محنة مرضها حتى أيامها الأخيرة .

معاناة «كاترين مانسفيلد» تفوق الوصف !!

لقد كانت مُعاناة «كاترين مانسفيلد» الأليمة مصدراً لنبوغها الأدبى وثراء إنتاجها فمأساتها لم تتوقف عند حدود آلامها الجسدية والاقتصادية حيث كانت تُعانى من الفقر المدقع إلى أن توفيت . بل تعدت مأساتها الأبعاد العاطفية ووضح ذلك فى علاقتها الزوجية الفاشلة وانفصالها، وعلاقة حب لم تكتمل مع الكاتب المبدع الذى عاصرها «د. هـ . لورنس» .

لم تكن فى عصرها محبوبة، وهى كانت لا تهتم بأن تكون محبوبة، كانت تريد أن تكتب فقط، حياتها فى الواقع كانت تعسة ودامية ؛ فهى فقدت طفلها، وماتت فى عُمْر الخامسة والثلاثين بسبب إصابتها بالسل .

ولأنَّها امرأة عظيمة فقد انعكست معاناتها فى معظم أعمالها الأدبية لتصف لحظات مؤلمة مرَّت عليها، تعجنها بمزيج من خيالها المبدع ورهافة أحاسيسها.

إبداع «كاترين مانسفيلد» القصصى :

نشرت «كاترين مانسفيلد» أول أعمالها فى عام 1911 م تحت عنوان : «فى فندق

ألمانى» . أمَّا كتابها الثانى وهو مجموعة قصصية بعنوان «النعيم . وقصص أخرى» Stories Bliss and other، فلم يُنشر إلاَّ فى عام 1921 م .

اشتهرت أيضاً بكتابة المقالات النقدية ومذكراتها الشخصية والقصص التراجيدية المُعبرة عن الواقع .

بعد وفاتها قام زوجها «جون مدلتون موراى» بنشر مجموعة من أشعارها فى عام 1928م، ونشر قصصاً قصيرة لم تنشر من قبل بعنوان «عش الحمام» إضافة إلى نشر رسائلها ومذكراتها الشخصية، ثم نشر أيضاً كتاباً احتوى هوامش كتاباتها فى عام 1940م .

القصة القصيرة : زواج على الموضة :

حاولت «كاترين مانسفيلد» فى هذه القصة مزج نوعين من الشخصيات المتضادة، فعرضت علينا أولاً : شخصية الإنسان الرومانسى، رقيق المشاعر، الذى يعكس اهتمامه وحبه للآخرين من خلال تعامله معهم، وكل هذه الصفات أُضيفت على شخصية الرجل فى القصة . ثم أبرزت فى المقابل المرأة العملية المُجرَّدة من العاطفة القوية، والتى تتعامل مع الآخرين بغلاف من البرود .

و تُعبِّر القصة عن أسلوب الكاتبة الأدبى العام، وهى هنا تقوم باستخدام الشخصيات المُعتادة فى التركيب العائلى : الأب، الزوج، الزوجة، والأطفال . وتقوم بتطوير الشخصيات بشكل استمرارى، من خلال السماح لهم بالتطور عن طريق التفكير المسموع كأداة أدبية لسرد قصتهم .

«ويليام» هو الشخصية الرئيسة فى القصة . اعتاد قضاء أيام العطلة مع أطفاله وزوجته السابقة . وكثيراً ما كان يغمر الساعات التى يقضيها معهم بكرم عواطفه ومادته ؛ فيحضر لهم الكثير من الهدايا . إلاَّ أن هذه الفترة التى يمر بها كانت فترة ضيق مادى حاد ومشكلات مالية بلا حدود، كما ذكرت الكاتبة فى بداية القصة.

وتذكر الناقدة الأديبة «إليزابيث بوينين» أن هذا الوضع المالى الذى وصفته «كاترين»

فى هذه القصة كان منطبقاً على حالة زوج «كاترين مانسفيلد» فى الواقع ولم يبعد الخيال كثيراً عن الحالة الحقيقية التى كان زوجها يعيشها عندما كتبت «كاترين» القصة .

شخصية «ويليام» ومعاناته التى انعكست فى طبيعة المعاملة التى عاملته بها زوجته السابقة «إيزابيل» كانت العلاقة أشبه ما تكون بعلاقة الغرباء، لم تشدهم أية خيوط من الصداقة أو المعرفة أو العلاقة الحميمة، فهى تبدو كأنَّها ضد ولادة أى عاطفة دافئة فى علاقتها بزوجها أو بأطفالها . كانت تقول : «زوجى عاطفى بشكل مرعب» . وتقول أيضاً : «العواطف الجياشة هى سيئة للأطفال وتربيتهم وإحساسهم بالحياة» .

هناك بلا شك مخاوف عميقة تعيشها وتقطن داخل نفسية «إيزابيل» تمنعها من معرفة عواطفها والتمتع بها، أو خلق أية رابطة إنسانية بينها وبين أى إنسان آخر بمن فيهم زوجها وأبنائها . إنَّها تذهب بعيداً فى ذلك إلى درجة محاولة منع أبنائها من التعلق حتى بلُعبهم التى يقضون معها معظم ساعات يومهم !!

«إيزابيل» تقضى معظم وقتها مع مجموعة من شبه أصدقاء . تربطها بهم علاقة سطحية لسد حاجتها للطمأنينة الإنسانية بشكل عابر . وبينما هى تبدو كفراشة فى تلك المجموعة، يبدو «ويليام» منفردًا وحاصراً عواطفه فى العلاقة العميقة مع أطفاله .

يرسل «ويليام» فى نهاية القصة خطاباً إلى «إيزابيل» عبارة عن رسالة حب مليئة بالعواطف الجيَّاشة، «إيزابيل» تقرأ الرسالة لمجموعة أصدقائها بصوتٍ مسموع وهم يتبادلون النكت والضحكات ؛ لأنَّهم لا يستطيعون التعاطف معها .

ثم تأتى لحظة الاستجلاء، عندما يمرّ بخاطر «إيزابيل» ويثبت الفرق بينها وبين «ويليام» زوجها فى مجال المقارنة الإنسانية . اعترفت لذاتها بمدى سطحيتها وفراغ روحها وخلوها من أى عمق عاطفى أو إنسانى . ويظهر لنا الصراع النفسى الذى يجبرها على الخيار ما بين كتابة رد على رسالة «ويليام» أو العودة إلى حشدها وتأجيل كتابة الرسالة .

وتتركنا «كاترين مانسفيلد» مع أسئلة بغير إجابات، فالشخصيات غير مكتملة تماماً فى القصة، ويأخذ القارئ الانطباع بأن هناك أسطرًا لم تضعها المؤلِّفة بعد لتكتمل القصة.

قصة : بيت اللُّعبة :

وهى قصة رائعة بالمطلق عن العلاقة بين الطبقات الاجتماعية، حيث فتيات ثريات صغيرات، يدعون فتيات فقيرات صغيرات ليتفرجن على ألعابهن الخاصة، فى براءة الطفولة المُعتادة، ولكن يفاجئهن رجل كبير من الأثرياء فيصرخ بعنف فى الفتيات الفقيرات وهو يقول : أخرجن من هنا . إنَّها قصة تكشف وتفضح الانحياز الطبقى المقيت .

قصة : خادمة السيدة :

فى هذه القصة تستخدم «كاترين مانسفيلد» فى كتابة قصتها ما يُعرف باسم المونولوج الدرامى Dramatic Monologue، وفى هذا المونولوج نسمع - كما لو كان عن طريق المصادفة - شخصاً ما وهو يتحدَّث بصوتٍ عالٍ إلى شخص آخر. ويتميَّز الحديث بالتلقائية التى تتميَّز بها المحادثة الحقيقية . ويمكننا من خلال ما نسمعه أو ما نقرأه أن نستنتج أين يوجد المتكلم وإلى مَنْ يتحدَّث، وذلك من خلال الإشارات التى ترد فى حديثه .

قصة : حيث الريح تهب :

صدرت فى عام 1920م معتمدة على أبيات للشاعر «شيللى» من قصيدة الغيوم، وتكنيك السينما بتغيُّر أضوية سفن الخليج العابرة فى الأسطر الأخيرة، فتتغيَّر أعمار الشخصيات فى الحنين بين الطفولة والشباب، وانتقالها المستعجل الحزين بين سنواتها المنقضية المفتقدة وأحلام ذكرياتها البعيدة .

قصة : حفل الحديقة :

بالرغم من ابتعاد «كاترين مانسفيلد» عن موطنها الأصلى نيوزيلندة وأهلها، لكن أجمل ما كتبته كان بتأثير بيئتها وأجواء عائلتها التى كان تأثيرها واضحاً على أغلب قصصها خاصة قصة «حفل الحديقة» The Garden Party، والتى صدرت فى عام 1923م . وهى تحكى عن وجهة نظر فتاة مراهقة حيث يموت عامل الحديقة بينما الناضجون يلهون غير مكترثين .

سمات الأسلوب القصصى لـ «كاترين مانسفيلد» :

تعتبر «كاترين مانسفيلد» من الكُتَّاب المحدثين الذين فكوا بعض القيود وقوانين القصة القصيرة باللغة الإنجليزية وتركوا بصماتهم فى تغيير منهاج ذلك النوع من الأدب، ذلك بالرغم من صغر سنها وقلة إنتاجها بسبب رحيلها المبكر.

وتتميَّز كتاباتها بالاهتمام بجوهر الحدث بعد أن تخلت عن العقدة والخاتمة المفاجئة، ممَّا جعل قصصها تأخذ منحى حياتياً إنسانياً، حيث تبدو كل الأشياء ظاهرة بصدق وظافية على السطح حتى الوصول إلى سحر النهاية، من خلال وجهات نظر شخصيات القصة الرئيسة.

كما أن قصصها مُحكمة الصياغة، دقيقة التخطيط، قوية التأثير فى بساطة، دقيقة الملاحظة فى رقة متناهية، فيتم من خلالها الكشف عن أعماق الشخصية عن طريق تقديم لحظة حاسمة فى حياتها. كما تتميَّز بالتركيز على الصراعات النفسية الباطنية.

ويوجد لدى «كاترين مانسفيلد» لمسات شعرية صغيرة حيث بكلمات قليلة تجمع الأساس للتجربة الإنسانية. وفى قصصها ورسائلها تندمج فى جزئيات الكون اندماج شاعر عبقرى. وظلَّ الطفل فى معظم قصصها هو وحى فكرها وخيالها فهو العاطفة المُطلقة والوجه البشرى البرىء. لقد كانت «كاترين مانسفيلد» تُحب الدمامة كما تُحب الجمال، فلقد كانت تؤمن أن الدمامة قد تنطوى على حُسن معنوى رائع.

هذا وتقول عنها الناقدة الفرنسية «مارى ديبليشين» التى أصدرت لها مجموعة من القصص القصيرة التى تنشر لأول مرَّة فى عام 2003 م : «أنا أُحبّها بالطبع وقبل كل شىء لموهبتها فى التعاطى الدقيق مع الوصف ومع الأشياء التى لا تدرك بالحواس.. قصصها القصيرة غريبة جدًّا، ورائعة جدًّا، مع العلم أن بعض قصصها ضعيفة نوعاً ما، إلاَّ أنَّها فى المجمل فريدة للغاية».

الرحيل :

أُصيبت «كاترين مانسفيلد» بمرض السل الرئوى، فأخذت تنتقل ما بين فرنسا وسويسرا للعلاج بدون جدوى، فتوفيت فى إحدى مصحات باريس عام 1923م، وعُمْرها لم يتجاوز الخامسة والثلاثين.